وصفُ دمشق في شعر البحتري

الدكتور محمد جعفر اصغري
أستاذ مساعد - كلية الآداب - جامعة ولي العصر(عج) – رفسنجان – إيران
erfan_arabic@yahoo.com
طالب الدكتوراه كمال دهقاني اشكذري
جامعة طهران – طهران - إيران

Description of Damascus in Buhturi's Poetry

Dr. Muhammad Jaafar Asgari
Assistant Professor - College of Arts - University of Wali Al-Asr (Aj) - Rafsanjan – Iran
Doctoral student, Kamal Dahkani Ashkari
Tehran University - Tehran - Iran

الملخّص :

نتيجةً لتطور الحضارة الجديدة، أصبحت المدينة منَ الظواهر البارزة في شعر العصر العباسي وقد تجلّت بشكلٍ لافت للنظر في شعر شعراء هذا العصر كالبحتري ؛ تطرّق هذا الشاعر إلي وصف كثير من المُدن التي زارها خلال حياته، ومن هذه المدن هي مدينة دمشق. وصف البحتري بعض سمات هذه المدينة في أشعاره المدحية، فَهُو لايفرد لها قصيدةً مُستقلةً، وإنّما يرسم صورتها إمّا في إفتتاح بعض قصائده بدلا من الوقوف أمام الطلل البالية أو المحبوب، وإمّا ضمن القصائد؛ فبناءً علي ما ذُكرَ، تُعوّل الدراسة علي المنهج الوصفي- التحليلي وذلك عبر الاعتماد علي الأبيات التي قالها الشاعر حول دمشق في ديوانه.

وأما أهمّ النتائج التي توصّلت إليها الدراسة فهي أنّ البحتري وظّف بعض الصناعات البديعية كالجناس والتضاد والمبالغة والتناص القرآني وغير البديعية كالتشبيه الحسي في سبيل تصوير مدينة دمشق، وهو يكرّر بعض الحروف في أبياته لكي يخلق نغما موسيقيا؛ من ناحية أخري، يكثر من وصف الطبيعة في تصويرها ويدمج الطبيعة الحيّة بالصامتة؛ غير أنّ الحظّ الأوفر في هذا المجال يتعلّق بالطبيعة الحية، فهو يصوّر المدينة تصويرا متحرّكا. يعجب البحتري بالربيع في كلامه عن مدينة دمشق ولعلّ هذا الإعجاب يعتبرُ رمزا للعطاء والكرم أو إزدهار الحياة في زمن ممدوحيه.

الكلمات الرئيسة: العصر العباسي – البحتري – الطبيعة – المدينة – الوصف – التصوير - دمشق

Abstract:

Due to the advancement of the new civilization, the city is considered as one of the most prominent phenomena of Abbasid poetry and has been manifested significantly in poetry of that era. Buhturi is a poet who, in his poetry, has described many cities he has seen throughout his life. One of these cities is the city of Damascus. Surely no poet in the second Abbasid era, as enthusiastic as Buhturi has describe the merits of his city. In some of his poems, Buhturi portrays some of the features of this city. The poet does not consider a complete and independent Qasida, but instead of standing on ruins, either at the beginning of the heart or inside them, depicts the city of Damascus for us. Accordingly, the present research employs a descriptive-analytical method and relied on the verses that the poet has composed about the city of Damascus.The most important research results show that in the image of this city, Buhturi uses some of the innovative literary devices such as pun, contradiction, exaggeration and stylistic devise such as simile, and compose poetic rhythm via repetition of some voices. Moreover, by mostly describing nature, Buhturi blends the living nature with silent one, but the nature of life is described more eloquently. Hence, he brings to the moving image of the city. In describing Damascus, the spring is pleasant Buhturi, and this is a sign of forgiveness, a worm and a blossoming of life at the time of his praisers.

Key words : Abbasid era , Buhturi, nature , city , description , image , Damascus

المقدمة

المدينة هي مَسكن الإنسان الطبيعي وهي المكان الإنساني الأفضل المبني لسعادته. يُعَدُّ وصفُ المدينة في الشعر مظهرا من مظاهر الحداثة إلا أنّ الإهتمام بها قد بدأ مُنذ القديم؛ فكانت موضوعا من الموضوعات التي دار عليها شعر الشعراء. الشاعر العربي قد أدرك بالفطرة أهمية المدن في حياته، إذ ربطها بمصير الحياة والموت. «كانت رؤية الشاعر الجاهلي للمكان هي رؤية نابعة من الحاجات النفسية التي كانت تنقصه والتي بدونها لايمكن له أن يشعر بلذة الحياة، لذا فالوقوفُ علي الأطلال، ظاهرة سادت في الشعر الجاهلي، إلا أنّها لم ترق إلي صورة المدينة المعروفة بمقوّماتها الحضارية الراقية.» (محمدقميحة، ١٩٨١م: ٣٧٥) مَعَ مجيء الإسلام، قَد ارتَبطت المدينةُ بالمفاهيم التي وَرَدَت فِي القرآن الكريم، إذ حدّد الله سبحانه وتعالي صفات بعض المدن وأهلها، كما وصف في عدة مواضع صفات أهل القري والمدن؛ فالمدينة «رمزٌ للمكان ومركزٌ كبيرٌ للتجمع البشري يضمّ بين جنباته طبقات متباينة من الناس يغلب عليها الطابع المادي بشكل عام؛ لأنّ ظروف الحياة فيها تختلف كثيرا عن ظروف الحياة في القرية أو الريف، فهي تتطلب مالا كثيرا من أجل المأكل والمسكن والملبس، فكلّ شئ في المدينة بثمن.» (المصدر نفسه) أما في العصر العباسي فقد إتخذت المدينة صبغة جديدة لم تكن شائعة من قبل و«أصبحت سمة للحياة الجديدة ولتطور الواقع الحضاري العربي الإسلامي، الذي خرج من طور البداوة إلي طور التمدّن.» (رماني، لاتا: ٧٧) هذا الإنتقال من مرحلة إلي أخري أدّي إلي التغيير في بنيات المجتمع العباسي وظهور عادات وتقاليد جديدة لم يكن لِلعربي عَهدٌ بها.

بالرغم من كلّ الإنتباهات التي إهتمّت بالمدينة عند الشعراء في زمنٍ دون آخر، لم يلق موضوع المدينة إهتماما كبيرا من لدن الشعراء «فقد عاش بعض الشعراء العرب في البادية وعاش بعضهم في المدن وظهرت أصداء حياة المدينة عند شعراء المدن ولكنّها كانت خافتة وقد يَعود السَّببُ في ذلك إلي بساطة الحياة في المدن العربية القديمة وعدم تشابك عناصرها، كما هو الحال في المدن الحديثة.» (الربيعي، ١٩٨٨م: ١٢٤-١٢٠) «يكون عدد من الشعراء المعاصرين ريفيي النشأة، ثمّ هاجروا إلي المدن، فالصدام بينهم

وبين المدنية لايعني مقتا للحضارة ووسائلها وإنّما هو تعبير عن عدم الألفة بينهم وبين البيئة الجديدة لأسباب مختلفة.» (عباس، ١٩٩٨م: ١١٢)

وأمّا «مدينة «دمشق» فهي عاصمة الجمهورية العربية السورية ومركز محافظة «دمشق» وهي إحدي أقدم مُدُن العالم. هناك عدة آراء في شرح معني إسم دمشق، أوفرها إنتشارا كون اللفظة سامية قديمة بمعني «الأرض المسقطة.» (كلاس، ٢٠٠٨م: ٥٠) «قد وردت في اللغة الهيروغليفية علي هذا النحو تقريبا ومعناها الأرض المزهرة أو الحديقة الغناء. وأطلق الاراميون عليها اسم «درمسق» و السريان «درمسوق» و أهل لغة التلمود «درمسقين.» (علي، ٢٠١٣م: ٧) «بعد الفتح الإسلامي للشام عُرفَت «دمشق» بالكثير من الأسماء، منها «دمشق الشام» تمييزا لها عَن مدينة «غرناطة» في الأندلس التي سُمّيت أيضا بـ دمشق العرب، و«ذات العماد» لكثرة الأعمدة في أبنيتها، و«باب الكعبة» لوجودها علي طريق مكة، و«الفيحاء» لإتساعها ورائحتها الزكية.» (دطب، ٢٠١١م: ١٢٥) لقد إهتمّ كثير من الشعراء بالمدينة، فجسدوا خلال قصائدهم حبّهم وحنينهم إليها يقول محمد صبري: «وقد يبدو حبّ الطبيعة عند البحتري ويتجلّي في وصف مساكن العرب وديارهم في الجزيرة والشام والعراق ومناظر الطبيعة التي يراها في أسفاره.» (حاوي، ١٩٦٧م: ١٧٨)

«تناول البحتري نوعين من الوصف ، أحدهما :وصف الطبيعة و هو قليل الحظ من الابتكار وأغلبه تقليدي ، غير أن تقليده لم يخفِ شخصيته إذ تظهر واضحة برغم التقليد فوصفه يمتاز بالحياة والحركة والموسيقى المتجانسة ، أما النوع الثاني فهو وصف العمران ، وبخاصةً القصور وما فيها من بدائع الفنون.» (المصدر نفسه) في الحقيقة هو مفتون بروائع الصنعة في القصور الفخمة والأبنية العجيبة كإيوان كسري وبركة المتوكل وقصر المعتز بالله وقصائده في وصف هذه البني أمثلة فريدة في الشعر العربي. «هو وصّافٌ ماهرٌ و أميل إلى الوصف الحسي الذي يتناول المحسوسات وجاء شعره في الوصف ليس بدوياً ولا حضرياً يتأرجح بين المنزلتين.» (دريب، ١٩٩٠م: ٤٩)

تمتّع الشاعر بما في مدينة «منبج» من مباهج حيث تنشقّ تحت أشجارها الوارفة الظلال.فماؤها العذب و نسيمها الرقيق أثّرا في سرح خياله في الطبيعة بما فيها من أهاضيب و سهول و بساتين؛ فلعله لم يجد شاعر من الشعراء تمجيد البحتري لِبَهجةِ وطنه.

وَما يهتمّ به في هذه المقالة هو نوعيةُ توصيف مدينة «دمشق» في شعر البحتري بوصفها مدينة قضي زمنا فيها وكان يحنّ إليها في أشعاره، والمنهج المتّبع هو المنهج الوصفي-التحليلي وذلك من خلال الإعتماد علي الأشعار التي قالها فيها في ديوانه، إذاً الأسئلة التي سنحاول أن نجيب عنها هي:

كيف يصوّر البحتري مدينة دمشق؟

ما هي الآلات الموظّفة في سبيل تصوير هذه المدينة؟

الدراسات السابقة

لاتُوجدُ دراسةٌ حول تصوير مدينة «دمشق» في شعر البحتري بشكل خاص، ولكن الدراسات التي أنجزت حول البحتري كثيرة وبحث الدارسون الكثيرون عن البحتري في أبحاثهم، من جانب آخر حظيت «دمشق» بدراسات غير قليلة في الدراسات التاريخية والجغرافية خاصة ولكن حتي الآن لم يتطرق باحث أو كاتب إلي تصوير المدن في شعره وخاصة مدينة «دمشق»؛ لهذا لم نعثر علي دراسة مسبقة كانت لها علاقة مباشرة بموضوع البحث، فنشير إلي أهمّ الدراسات التي توصّلنا إليها حول البحث عن المدينة وما يرتبط بها:

كتاب «المدينة في الشعر العربي المعاصر» من منشورات عالم المعرفة في الكويت لـ «مختارعلي أبوغالي»: تُدرس فيه المدينة في الشعر العربي المعاصر، كما يتناول الكاتب ثنائية المدينة والقرية فيه آتياً بنماذج شعرية من الشعراء المعاصرين دارساً اياها دراسة خافتة.

مقالة معنونة بـ «تقابل شهر وروستا در شعر معاصر عربي وفارسي به ويژه در آثار بدر شاكر السياب وقيصر أمين پور» المنشورة في العدد السادس عشر من مجلة الأدب الفارسي، جامعة مشهد الحرة وقد درس الكاتبان فيها تقابل المدينة والقرية في شعر بدر شاكر السياب وقيصر أمين پور ثمّ تطرّقا إلي الوجوه المشتركة بينهما.

مقالة مُعنونة بـ «رويكردهاي انساني به شهر در شعر معاصر عربي وفارسي» المنشورة في مجلة «أدب پژوهي». العدد ١٥ يتحدث فيها الكاتب عن الإتجاهات الإنسانية في الشعر المعاصر العربي والفارسي مُشيرا إلي نماذج شعرية من شعر صلاح عبدالصبور في هذا المجال.

نظرة عابرة إلي حياة الشاعر وعصره

«هو أبوعبادة الوليد بن عبيد، طائي الأب، شيباني الأم، غلب عليه لقب البحتري نسبة إلي عشيرته الطائية بُحتر، وُلد سنة ٢٠٤ للهجرة بمنبج إلي الشمال الشرقي من حلب علي الطريق المؤدية منها إلي الفرات.» (ضيف،١٤٢٦ق: ٢٧١-٢٧٠) وهو أحدُ الثلاثة الذين كانوا أشعر أبناء

عصرهم، وهم أبو تمام والمتنبي والبحتري. «سئل أبوالعلاء المعري: أي الثلاثة أشعر؟ أبوتمام أم البحتري أم المتنبي؟ فأجاب المتنبي وأبوتمام حكيمان والشاعر البحتري.» (الآمدي، ١٩٩٤م: ١٧٨) حفظ البحتري القرآن أو شطرا كبيرا منه، كما حفظ كثيرا من الأشعار والخطب واستيقظت فيه موهبة الشعر مبكرة. إمتدّ بالبحتري طموحه؛ فتجاوز به بلدته «منبج» إلي البلاد الأخري وإتسع برحلاته إلي «حمص» وكان السعد معه، فإذا هو يسمع بأنّ أباتمام بها والشعراء يعرضون عليه أشعارهم، فعرض عليه شعره، فأقبل عليه. «وضع أبوتمام نُصب عَيني البحتري دُستورا قويما لإحسانه صناعة الشعر. هو غزير الشعر و طار بكلّ الأجواء وأناخ راحلته في الحاضرة والبادية. جالس المتوكل ونادم الفتح بن خاقان وخالط كثيرا من الخلفاء ورجال الدولة ووسيلته إلي ذلك، أدبه الفياض الغزير وشعره الواضح المستعذب. أصيب بحادثة كادت تقضي عليه؛ فقد نسب له حساده سوء عقيدة واتهموه تهمة كاذبة أنّه ثنوي العقيدة، فثار عليه الرأي العام في بغداد، فهرب هو وإبنه، لأنّه لم يكن ثنويا في عقيدته، بل كان شيعي المعتقد ورضي عن المنتصر لأنّه أكرم بني علي (ع).كان يأخذ بحظوظ مختلفة من الثقافة الإسلامية والعربية في عصره والمديح أهمّ موضوع إستنفد شعر البحتري، غير أنّ في ديوانه أهاج مختلفة والفخر عنده ضعيف.» (الآمدي، ١٩٩٤م: ١٨٧) «مات البحتري سنة ٢٨٤هـ بموطنه ودفن بها وهو يناهز الثمانين عاما.» (البستاني، لاتا: ٢١٥)

«يعتبر القرن الثالث الهجري نهاية التحدّب الأقصي إذا صحّ التعبير وبداية التقعّر الأدني؛ فقد إختمرت الثورة علي كل شئ وتطوّر الفكر العربي والإسلامي تطورا هائلا، إذ بعد النقل بدأ العقل، وبعد الإتباع بدأ الإبداع. إذا ما أردنا أن نتحدّث عن ظاهرة العصر الفنية يمكن القول أنّ هذا العصر يتميز بالإختصاص والتقنية في الشعر، كما أصبح الشعراء علماء مرموقين في اللغة والتاريخ والتأليف والفلك والفلسفة. فهذا العصر، عصر التقنية الشعرية المتخصصة التي يحدوها خيال حضري جديد وعقل لم يعد في نظرته للأشياء بدائيا بسيطا. لقد قامت في هذا العصر قيامة الجدلية الفنية الحادة بين المبني والمعني بين الصورة وأبعاد الصورة و كان مبدعها الأول أبوتمام و رائدها البحتري.» (شرف الدين، ١٩٩٢م: ٢٤)

صميم البحث

علي الرغم من كثرة الدراسات النقدية المعاصرة وتشعّبها، كانت البلاغة العربية ولاتزال مدرجة تحت الأقدام ونحن لانريد أن نشير في هذا المقام إلي أسبابها، بل الذي يهمّنا هو تحليل مفهوم «المدينة» عند البحتري علي أساس النقد البلاغي بقدر ما يسمح لنا المقال؛ لأنّ البلاغة العربية تستطيع بمباحثها المتعددة أن تغوص في أخصّ مشاعر الأديب. لانبعد عن الحقيقة كثيرا إذا قلنا مع العلماء المنصفين المحدثين: «إنّ البلاغة كانت ولاتزال عماد مذهب أصيل من مذاهب النقد الأدبي، وهو المذهب البياني أو المذهب الجمالي الذي أصبح يطلق عليه في أيامنا «المنهج الفني في نقد الأدب» وهو أقدم مناهج النقد المعروفة، يبحث بمقتضاه عن الأسس الفنية التي ينهض عليها الأدب و تضمّ شملها الدراسات البلاغية.» (طبانة، ١٩٦٨م: ٤٣٥)

«في شهر صفر سنة ٢٤٤هـ قدم المتوكل إلي «دمشق» وعزم علي المقام بها ونقل دواوين الملك إليها وأمر بالبناء بها وكان قد أبي أن ينزل المدينة لتكائف هواء الغوطة عليها، فنزل قصر المأمون وذلك بين «داريا» و«دمشق» علي ساعة من المدينة، ثم أقام شهرين وأياما وعاد إلي سامرّا وكان بين خروجه منها ورجوعه إليها ثلاثة أشهر وسبعة أيام» (ابن عبيد، ١٣٠٠ق: ٧٠٩) يقول وهو يمدح قدومه إلي «دمشق»:

العَـيشُ فِـي لَيْـلِ دَارَيَّـا إذَا بَـرَدَا وَ الـرّاحُ نَمْزُجُهَـا بِالمَـاءِ مِـنْ بَـرَدَي

(المصدر نفسه: ٧٠٩)

«دَاريَا هي من قري الغوطة كانت أعظم قري أهل اليمن بغوطة «دمشق» وهي تبعد عنها نحو ثمانية كيلومترات جنوبا إلي الغرب.» (عبد الرضا، ٢٠١٤م: ٤٠٨-٣٧٤) نظم البحتري هذه القصيده في وزن البسيط المخبون وهو «البحر الذي يتّصف بنغماته العالية و بتغيير حركي موجي إرتفاعا وإنخفاضا حتي إيقاعه يتعلّمه بيسر كلّ من لم يألف العروض، لأنّ سهولة موسيقاه الطاغية تقود الأذن إلي دقّة تركيبه بمجرد تكرار أبيات مقطعة نغميا.» (المصدر نفسه) هناك في البيت جناس غيرتام بين كلمتَي «بَرَد وبَرَدَي». أحدث هذا الجناس مع تكرار مصوّت «ر» (خمس مرّات) وصامت «ا» (سبع مرّات) نغما موسيقيا يثير النفس وتطرب إليه الأذن، كما يؤدّي إلي حركة ذهنية تثير الإنتباه عن طريق الإختلاف في المعني.

«ذكر الليل أثر في شعر الشاعر وأصبح في هذه القصيدة محببا إلي نفس الشاعر لما منحه من أسباب الإستمتاع واللذة التي قدتصل إلي حد التنعّم. وفّر الليل له العيش الذي يغرق في أحلامه من قدوم المحبوب أو لقاء المحبوبة والذي يجده الشاعر متنفّسا عن الآلام و العذاب ويجلب له الشعور بالإرتياح. تباطؤ حركة الزمن في ليل العاشق أو سرعتها يظلّ محكوما بأحوال النفس وإحساسها الذاتي بالحركة.» (ابراهيم، ١٩٩٧م: ٩٠)

ثمّ يقول في البيت السابع إلي التاسع منَ القصيدة نفسها:

يُمْسِي السَّحَابُ عَلَي أجْبَالِهَا فِرَقا ... وَ يُصْبِحُ النَّبْتُ فِي صَحْرَائِها بَدَدَا

فَلَسْتَ تُبْصِرُ إلا وَاكِفا خَضِلا ... أو يانِعا خَضِرا، أو طَائِرا غَرِدا

كأنّمَا القَيْظُ وَلّي بَعْدَ جَيئَتِه ... أوِ الرَّبِيعُ دَنَا مِنْ بَعْدِ مَا بَعُدا

(ابن عبيد، ١٣٠٠ق: ٧١٠)

يستخدم الشاعر الألفاظ السهلة والتراكيب البسيطة، فالملاحظ في وصفه إندماجه مظاهر وصف الطبيعة الصامتة بالطبيعة الحيّة، إذ تعتبر (السحاب، الجبال، النبت، صحراء، واكف، القيظ) من مظاهر الطبيعة الصامتة وتعدّ مفردة (طائر) من مظاهر الطبيعة الحية؛ إنّ أهمّ المظاهر التي لفتت إنتباه الشاعر هو تقلّب الجوّ وهذا الإنتقال من

مناخ إلي آخر، يدلّ عادةً علي زمن الفرح ونشوء السعادة وحاول أن يصوّر الشعور وأحاسيسه بواسطة إستخدام هذا الإنتقال في الطقس. المطر في عرف الشعر والشعراء يدلّ علي الفرح والسرور عادة وهو ينزل من السماء حين تشدّ الشدائد والمصائب، كما أنّ إبتهاج الأرض يكشف عن هذا المعني نفسه. في مثل هذا الجوّ البهيج غالبا كان الشاعر يحلو الخمرة فيدعو إلي شربها صافية لكي يشارك الطبيعة في سرورها وهذا ما نراه في القصيدة، إذ قال في البيت الأول منها أنّه سيقوم بإندماج ماء نهر «بَرَدي» بالخمرة. إستخدم الشاعر في هذه الأبيات «مراعاة النظير» وهي واضحة بين ألفاظ (السحاب، أجبال، النبت، صحراء، واكف، يانع، طائر، القيظ و الربيع). حاول البحتري بإستخدام هذه الصنعة أن يتّسق شعره وهو يراعي الوضوح فيها. والألفاظ ملائمة للمعني المراد؛ لأنّ الشاعر لم يستعمل الألفاظ أو الأوزان الثقيلة التي تتضمّن معني أكثر ممّا يحمله الواقع.

الشاعر في هذا المجال يدعي قدوم المتوكل علة ضحك الأرض ومجيء الربيع في مدينة «دمشق» (حسن التعليل) هو ينكر علة الشيء المعروفة ويأتي بعلة أخري أدبية طريفة ومشتملة علي دقة النظر وهذه العلة غير حقيقية تزداد المعني جمالا وشرفا.

في قصيدة أخري قالها سنة ٢٨٢ه يمدح إسحاق بن نُصَير العبادي النصراني وكنيته أبويعقوب الكاتب البغدادي ويتحدّث عن صفة عُرفت «دمشق» بها وهي «إرم ذاتِ العِمَاد». تتكوّن القصيدة من ٢٠ بيتا و يغرق المدح قسما ملحوظا منها، ثم يقول في البيتينِ الأخيرينِ منها:

طَلَبْنَـــك مِـــنْ أمِّ العِـــراق نَوَازِعـــا بِنَـــا وَ قُصُـــورُ الشّـــامِ مِنْـــك بِمَرْصَـــدِ
إلـــي إرَم ذاتِ العِمَـــــادِ و إنَّهـــا لَمَوضِـــعُ قَصْـــدي مُوجفـــا و تَعَمُّـــدي

(ابن عبيد، ١٣٠٠ق: ٧١٠)

نظم البحتري هذه القصيدة في بحر الطويل وهو أكثر البحور العروضية إستعمالا وله إيقاعه الرصين الفخيم الذي يستعمل في الشعر الكلاسيكي كثيرا. قد نظمت معظم القصائد القديمة الخالدة في هذا البحر.

إستخدم الشاعر في البيت الثاني التناص القرآني من النوع الخارجي، إذ يوظّف نصّ الآية الشريفة: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴾(الفجر/٦ و٧). و«التناص بالقرآن له هدف أدبي جمالي، حيثُ إنّ أسلوب القرآن هو الأسلوب الأمثل للغة العربية، وإتخاذ بعض صوره وأساليبه نموذجا يضاف للصياغة الأدبية؛ مما يكسبها رونقا وجمالا، هذا فضلا عن الهدف الديني الذي يجعل التواصل بين القارئ والكاتب تواصلا خلاقا لما يجمع بينهما من رصيد زاخر بتقديس القرآن الكريم والتأثر بمعانيه العظيمة.» (الغباري، ٢٠٠٣م: ١٨١) يستفيد الشاعر من جمال الآية الشريفة ويعطي شعره رونقا وبهاء والغرض منه علاوة علي تجميل الأسلوب بالأسلوب القرآني وإتخاذ العبر، بيان المقاصد التاريخية والدينية وغيرها وهو عملية مقصودة لأهداف، أهمّها تحقيق العملية الأدبية للتواصل الناجح بين الشاعر والقارئ. أراد الشاعر بهذا التناص أن يرينا البُعد التاريخي والديني من مدينة دمشق وتسميتها بهذا اللقب.

«ذكر المفسرون أنّ إرم هي بلدة عاد أو أرضهم، أو أنّ إرم تسمية أطلقت عليهم نسبة إلي جدّهم الوارد في نسب عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح، كما يقال لبني هاشم، هاشم.» (النسفي، لاتا: ٣٥٤) «قال النسفي إنّ إرم تقع في بعض صحاري عدن ولم يحدّدها وقال الزمخشري إنّها الإسكندرية وقال غيره إنّها دمشق وروي آخرون أنّ إرم ذات العماد باليمن بين حضرموت وصنعاء.» (المصدر نفسه)

وقال يمدح المتوكل:

هِـي الأرضُ نَهْوَاهَـا إذا طَـابَ فَصْـلُهَا ... وَ نَهْـرُبُ مِنْهـا حِـينَ يحْمـي هَجِيرُهـا

عَشِـقَتْنَا الأولـي، وَ خُلِّتُنـا التـي ... تُحَـبُّ وَ إنْ أضْـحَتْ دِمَشْـقُ تُغِيرُهـا

(ابن عبيد، ١٣٠٠ق: ٩٤٣)

في البيت الأول، يكرّر الشاعر مصوّت (ه) ثماني مرّات وهذا المصوّت «إذا لفظ صوته مخففا مرققا مطموس الإهتزازات، أوحي بأرقّ العواطف الإنسانية وأملكها للنفس، فيكون مخرجه أيضا في أول الحلق، أقرب ما يكون من جوف الصدر.» (عباس، ١٩٩٨م: ١٩٣) من جانب آخر، يعدّ حرف (هـ) من حروف الهمس وقد عرّف سيبويه هذه الحروف قائلا: «أما المهموس فحرف أضعف الإعتماد في موضعه حتي جري

النفس معه وأنت تعرف ذلك إذا إعتبرت، فرددت الحرف مع جري النفس ولو أردت ذلك في المجهورة لم تقدر عليه.» (سيبويه، ١٩٨٢م: ٤٣٤) يعتبر تكرار المصوّت والصامت من آليّات موسيقي الشعر ويسهم في تثبيت الإيقاع الداخلي في النص الشعري. فتكرار حرف (هـ) في هذا البيت أدّي إلي ربط مفردات البيت وتماسكها في تأكيدها وأهميتها عمّا في نفس الشاعر، وأحدث إيقاعا متنوعا وحمل الجرس الذي يحدثه في السمع.

يشبّه البحتري مدينة دمشق بالمعشوقة ولعلّ السرّ الذي يكمن خلف هذا الأمر هو عدّ المرأة المثال الأعلي للجمال، فمن الطبيعي، إذا أُريدَ التعبيرُ عَن أَي شيءٍ جميل، شبّهوه بها؛ لأنّها حضرت في مسرح الشعر العربي وراح الشعراء يشبّهون بها كلّ عنصر من عناصر الطبيعة الصامتة والمتحركة ويجدون ما بينها وبين المرأة قاسما مشتركا وهذا يدلّ علي مكانتها الرفيعة التي حظيت بها آنذاك. لعلّه يرمز البحتري بالمعشوقة لبيان النماء والنعمة والرخاء في مدينة دمشق هذه؛ لأنّ المرأة المثالية في الشعر العربي صاحبة النماء وديمومة الحظاة.

ثم يستمرّ ويقول:

عَنطتُ بِشَرْقِ الأرضِ قِدْما وَ غَربِها أجَوّبُ فِي آفَاقِها وَ أسِيرُها
فَلَمْ أرَ مِثْلَ الشامِ دارَ إقامةٍ لِرَاحٍ تُغاديهَا وَ كأسٍ تُدِيرُها

(ابن عبيد، ١٣٠٠ق: ٩٤٣)

في البيت الأول بين كلمتَي (شرق وغرب) تضاد « ولاشك في أنّ التضاد والمقابلة يدفعان البحث الأسلوبي إلي أن يسبر أغوار اللغة ويكشف عن جمالياتها عبر تضاداتها التي تُمنح النص بُعدا دلاليا ونغميا، بَيدَ أنّ إستعمال الشاعر هذين اللونين مِن ألوان البديع يكون مقبولا إذا كان النظم الذي جاء فيه مطابقا لمقتضي الحال، وكان خاليا من التعقيد، خاليا من الصنعة المتكلفة.» (عباس، ١٩٩٨م: ٢٨٠) هناك تقنية عالية من خلال توظيفات الشاعر ومقدرته البارعة في الجمع بين المتضادات التقابلة-كما رأينا من قبل-علي شاكلة تبدو في غاية الإئتلاف بين اللفظ و المعني وخلق جرس إيقاعي أحيانا.

رأينا أيضاَ في هذا البيت مجازين: «شرق الارض و غربها» مجاز من كل العالم مع علاقة جزئية و «قدما» مجاز من السير و السياحة مع علاقة آلية.

«يفخر الشاعر في البيتين بشيوع شرب الخمر في بلاد الشام والسبب لهذا يعود إلي بلوغ الخمرة في عصره مرتبة كبيرة من التعظيم والتقديس، حيث إستمدّ الشاعر العباسي منها لكي يخلق عالما شعريا يجسّد من خلاله طاقته الروحية والإبداعية والفكرية.» (الشكعة، ١٩٨٦م: ١٧١) نري في العصر الجاهلي تعرّضا كثيرا للخمر وهم يسوقونها مع الحديث عن فتوتهم وكرمهم وبذلهم. حينما جاء الإسلام، كان بعض الشعراء يذكرون الخمر في قصائد المديح وعندما حرّم الإسلام الخمر، سكت الناس عن الخمر، فركد الشعر الخمري لأسباب يعود كلّها إلي وطن الإسلام، وقد عادت الخمريات في الشعر العربي إلي الظهور في العصر الأموي مجدّدا لقلة حدة الدولة تجاه الدين وإنتشار اللهو والمجون، أما في العصر العباسي «فتصدر موائد الشعر جماعات من الشعراء أكثرهم من غير العرب والعرب منهم-وهم أقلة-أولئك الذين أفسدتهم البيئة الجديدة وجعلتهم يتّبعون من السلوك ما يتنافر مع تقاليدهم.» (المصدر نفسه) قد تفنّن الشعراء في وصف نشوة الخمرة وآثارها في الجسد والعقل ووصف مجالسها وندمائها ومُنذ بداية هذا العصر، نجد الخمرة تقترن بالغناء والرقص، إذ كانت قصور كثير من الخلفاء كأنّها مقاصف للشرب وسماع الغناء وأماكن الفجور والمجون، حيث تنتشر فيها القيان والغلمان، كما كانت دور النخاسة تنتشر في أسواق المدن وهي تكتظ بمئات الفتيان والفتيات الجميلات اللاتي يتنافس عليهنّ البائعون في صورة تخدش الحياء وتبعد عن فكرة الإسلام عن معني الرق ومفهومه الدقيق.

ثمّ يستمرّ في وصفها ويقول:

مصَـــحَّةُ أبـــدانٍ، وَ نُزْهَـــةُ أعْـــينٍ وَ لَهْـــوُ نُفُـــوسٍ دائـــمٌ وَ سُـــرُورُها
مُقَدَّسَـــةٌ جـــادَ الرّبيـــعُ بِلادَهَـــا فَفِـــي كـــلّ دارٍ رَوْضَـــةٌ وَ غَـــدِيرُها

(ابن عبيد، ١٣٠٠ق: ٩٤٣)

من الموضوعات المستحدثة في الشعر العباسي هي شعر الفصليات وظهر هذا النوع من الشعر نتيجة لإمتزاج الحضارات والثقافات وظهور مجالس اللهو والغناء، لقد جذبت

فصول السنة وتغيراتها وخاصة فصل الربيع إنتباه شعراء هذا العصر، فهو بمثابة عروس الفصول في نظرهم. أعجب شعراء العصر العباسي-ومن بينهم البحتري- بالربيع و هذا الإعجاب دفعهم إلي رسم أجمل الصور الملوّنة بالألوان الزاهية المتعددة، فكانت ألفاظ الفرح والسعادة والبهجة من الأمور الهامة التي تناولها خاطر البحتري، بوصفها أدلّة علي فضل هذا الفصل من دون سائر الفصول، من ناحية أخري، يعبّر البحتري عمّا في نفسه من الفرحة الغامرة التي تدعوه إلي وصف الربيع في مقدمة هذه القصيدة المدحية بوصفه رمزا لإزدهار الحياة في زمن الممدوح. إنّ الترحيب بالربيع ليس مجرد كلمات نطقها الشاعر من دون وعي، بل يرحب به وهو في غاية السرور من قدوم الممدوح. يقرن البحتري مجئ اللهو والطرب ومعاقرة الخمرة بمجئ الربيع، فيدعو إلي شربه في هذا الفصل-كما أسلفنا-، لعلّ الشعور بجمال الطبيعة لديه في الربيع، يعدّ سببا في تجاوزه إلي هذا الأمر. الربيع بما يمتاز من كثرة الأمطار، يزدهر بها المزروعات و يراه الشاعر مثل من يهدي السرور إلي الناس عامة ويرمز الغيث رمزا للعطاء والكرم. من الناحية الفنية، يرسم البحتري تصويرا متحرّكا من هذا الفصل، فوجود الماء و الروض يدلّ علي هذا الأمر. كما نري، تغلب النزعة الحسية علي وصف الشاعر، حيث تتجلّي في تفصيلاتها الدقيقة ويضفي عليها الخيال و الإبداع لتتشكل صورة رائعة. ثمّ يقول:

تَبَاشَـرَ قُطْرَاهـا، وَ أضْـعَفَ حُسْـنَها بِـأنّ أمـيرَ المـؤمنينَ يزُورُهـا

(ابن عبيد، ١٣٠٠ق: ٩٤٣)

يقول الشاعر: بُشّر في هذه البلدة بدخول المتوكل فيها ولأنّه سيزورها قد ضعّف جمالها. إستفاد الشاعر في الشطر الأول من المبالغة التي هي من نوع التبليغ، إذ قال قد ضعّف جمال المدينة؛ لأنّ المتوكل سيزورها وهذا يدخل ضمن وصف الشئ بحيث يكون مقبولا عقلا وعادة. البحتري لايتجاوز عن حدود المنطق السليم في مدح ممدوحه ورغم أنّه يعيش في بيئة تزداد المبالغة بازدياد الحضارة ومال كثير من الشعراء إلي التزلّف والتملّق، إلا أنّه يراعي حدود مدح المقبول. «في الحقيقة مدح المتوكل ليس لغرض التودد و التكسب بل دليلا علي مدي ما يكنه البحتري للمتوكل و أبنائه من حب و

تقدير لأن هولاء العباسيين كانوا رموزا للعز و الوحدة العربية الإسلامية. «البحتري كان معجباً بشخصية المتوكل نفسه ، بدليل أن الخليفة قوي وعصره يمثل قمة الإزدهار.» (الخبيطي، ٢٠٠٥: ١٨٧-١٥٤)

يقول في قصيدة أخري وهو يصف المتوكل أيضا:

إنَّ دِمَشْـــقا أصْـــبَحَتْ جَنّـــةً مُخْضَـرّةَ الـرَوضِ عَـذَاةَ البِـرَاق
هَوَاؤهـــا الفَضْـــفَاضُ غـــضُّ النَـــدَي وَ ماؤُهـــا السَلْسَـــالُ عَـــذْبُ المَـــذَاق
وَ الـــدّهرُ طَلْـــقٌ بَـــيْنَ أفْيائِهـــا وَ العَـيْشُ فِيهـا ذُو حَـوَاشٍ رِقَـاق
وَ كَيْـــفَ لا تُؤثِرُهـــا بـــالهَوَي وَ صَـــيْفُها مِثْـــلُ شِـــتَاء العِـــراق

(ابن عبيد، ١٣٠٠ق: ١٥١٥-١٥١٤)

يقول الشاعر: إنّ دمشق كالجنّة التي روضها مخضرة وبدّلت أرضها الغليظة المختلطة بحجارة ورمل إلي الأرض الطيبة التربة، هواؤها الخضل أطرق الندي وماؤها السائغ سلس طعمه، الناس بشّاش ومرخّص في أرجاءها وهم متنعّمون بأنعمها، فبما أنّ المتوكل يهواها، أثّر فيها وهي بلدة صيفها كالشتاء في العراق. نُظمت القصيدة في بحر السريع وهو بحر يتدفّق عذوبة وسلاسة وسمّي بذلك لسرعة النطق به وكثرة الأسباب الخفيفة فيه وهو أشبه البحور بالرجز. يستعين البحتري في البيت الأول بالصورة التشبيهية في تصوير مدينة «دمشق» ليكون تصويره دقيقا ويشكلها من عنصر حسي ليقرّب الصورة إلي ذهن المتلقّي. فطرفا التشبيه عنده محسوسان في هذا البيت. إستقي الشاعر عناصر صورته التشبيهية من الطبيعة وفصح بذلك عمّا حدث في المدينة. الألفاظ التي يستخدمها البحتري للكشف عن مدينة «دمشق» تناسب تماما مع حالته النفسية، فالصورة التشبيهة تساعده للتعبير عن المشاعر التي تنطوي عليها نفسه. أشرنا فيما سبق أنّه يمزج الطبيعة الحيّة بالصامتة وهذا موجود في هذا البيت أيضا، إذ تعتبر (الروض، الهواء و الماء) من مظاهر الطبيعة الحية و(العذاة والبراق) من مظاهر الطبيعة الصامتة.

لعلّ البحتري يُريد بذكر الماء في هذه الأبيات و النهر في الأبيات السابقة، رمزا للعطاء والكرم من جانب الممدوح. لقد كان للبيئة الشامية النصيب الأكبر لوصف الطبيعة في شعر البحتري نتيجة لإفتتان الشاعر بمناظرها الخلّابة. وصف البحتري منظر الأرض بأنّه أبهي المناظر وأحسنها، كأنّها لوحة رائعة الجمال وزاهية بالألوان. أكثر البحتري في تصوير مدينة «دمشق» من وصف طبيعتها وهذا طبيعي، لأنّ البيئة الشامية آنذاك كانت أرضا خصبة للشاعر لكي يتأمّل فيها ويفتن بها، في الحقيقة صورة الطبيعة هي رؤية الشاعر لنفسه التي يعيش فيها ويتّخذ صورها (الحيّة والصامتة) ويبدع في وصفها بأصدق التعبيرات والكلمات.

النتيجة

عاش البحتري في العصر العباسي الثاني وهو عصر إتخذ فيه كثير من مظاهر الحياة صبغة جديدة، فمن هذه المظاهر هي المدينة التي خرجت من طور البداوة إلي طور الحضارة. قضي البحتري زمنا في مدينة «دمشق» وكان يحنّ إليها دائما في أشعاره وهذا أدّي بنا أن نتطرّق إلي أشعاره فيها. أوّل ما تلقانا هذه الدراسة هو إستخدام الأوزان التي تتصف بنغماتها العالية وسهولة موسيقاها والتي تتدفق عذوبة وسلاسة ورصانة (بحور البسيط، الطويل و السريع). لجأ الشاعر إلي الصناعات البديعية أكثر من أنواعها البيانية؛ إذ وظّف الجناس والتضاد ومراعاة النظير و التناص القرآني وتكرار الصامت والمصوّت من البديعية منها و التشبيه من البيانية منها. يكثر البحتري في وصف المدينة من تصوير طبيعتها؛ لأنّه بلغ شعر وصف الطبيعة في القرن الثالث الهجري ذروته علي يد فحول الشعراء من بينهم البحتري وفي هذا المجال يدمج الشاعر الطبيعة الحيّة بالصامتة؛ غير أنّ الحظّ الأوفر يبقي للطبيعة الحيّة وهذا يؤدّي إلي أن يكون تصويرُ المدينة متحرّكا أكثر منه صامتا. أعجب البحتري كشعراء عصره بالربيع ويرحّب به وهذا الترحيب ليس مجرد كلمات دون الوعي، بل يرحّب به وهو في غاية الفرح من قدوم الممدوح. يرمز

الشاعر بالربيع والمطر والفرح والسرور والعطاء و الكرم وفي هذا الجوّ يحلو للشاعر الخمرة، فيدعو إلي معاقرتها. يفخر البحتري بشرب الخمرة في هذه البلدة ولاغرو، إذ بلغت في عصره مرتبة كبيرة من التعظيم والتقديس وهويستمدّها لخلق عالم يجسّد من خلاله طاقته الروحية والإبداعية والفكرية. لقد كان للبيئة الشامية النصيب الأكبر لوصف الطبيعة في شعره نتيجة لإفتنان الشاعر بمناظرها الخلّابة. النزعة الحسية هي النزعة السائدة علي أوصاف الشاعر حيث نراها في التفاصيل و خياله المبتكر.

قائمة المصادر والمراجع

- الآمدي، أبوالقاسم. (١٩٩٤م). الموازنة بين أبي تمام و البحتري؛ تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد. بيروت: دار العربية.
- إبراهيم، نوال مصطفي أحمد. (١٩٩٧م). الليل في الشعر الجاهلي. الأردن: جامعة اليرموك.
- البستاني، بطرس. (لاتا). أدباء العربي في العصر العباسي، بيروت: دار الجيل.
- ابن عبيد، وليد. (١٣٠٠ق). ديوان البحتري. قسطنطنية: لا منشورات له.
- حاوي، ايليا. (١٩٦٧م). فن الوصف و تطوره في الشعر العربي. ط الثانية. بيروت: دار الكتاب اللبناني.
- الخبيطي، ساهرة محمود. (٢٠٠٥م). « وصف قصور الخليفة المتوكل علي الله في شعر البحتري، أنماطه و خصائصه ». مجلة أبحاث كلية التربية الأساسية. جامعة الموصل. العدد ٢. صص ١٨٧-١٥٤
- دريب، علي كامل. (١٩٩٠م). لغة الشعر عند البحتري.
- دطب، كمال. (٢٠١١م). تاريخ سوريا المعاصر. ط الأولي. بيروت: دار النهار.
- الربيعي، محمد. (١٩٨٨م). « الشاعر و المدينة ». مجلة عالم الفكر. الكويت. العدد ٣. صص ١٤٠-١٢٠.
- رماني، إبراهيم. (لاتا). أسئلة الكتابة النقدية. الجزائر: المؤسسة الجزائرية للطباعة.

- سيبويه، عمرو بن عثمان. (١٩٨٢م). الكتاب، تحقيق عبدالسلام هارون. المجلد الرابع. القاهرة: مكتبة الخانجي.
- شرف الدين، خليل. (١٩٩٢م). البحتري بين البركة والإيوان. بيروت: مكتبة الهلال.
- الشكعة، مصطفي. (١٩٨٦م). الشعر والشعراء في العصر العباسي. بيروت: دار العلم للملايين.
- صبري، محمد. (١٩٤٦م). أبوعبادة البحتري. دار الكتب.
- ضيف، شوقي. (١٤٢٦ق). تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الثاني. العراق: منشورات ذوي القربي.
- طبانة، بدوي. (١٩٦٨م). البيان العربي. ط الرابعة. القاهرة: مكتبة الأنجلو المصريه.
- عباس، إحسان. (١٩٩٨م). اتجاهات الشعر العربي المعاصر. الكويت: عالم المعرفة.
- عباس، حسن. (١٩٩٨م). خصائص الحروف العربية ومعانيها. دمشق: إتحاد الكتّاب العرب.
- عباس، فضل حسن. (١٩٩٨م). علم البيان والبديع. ط الثالثة. الأردن: دار الفرقان للنشر والتوزيع.
- عبدالرضا، نسرين قاسم. (٢٠١٤م). « بناء دليل لتدريس العروض في ضوء الصعوبات التي تواجه الطلبة و التدريسيين في كليات التربية الأساسية في جامعات الفرات الأوسط ». مجلة كلية التربية الأساسية. جامعة بابل. العدد ١٥. صص ٣٧٨-٤٠٨
- علي، محمد كرد. (٢٠١٣م). دمشق مدينة السحر و الشعر. مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة.
- الغباري، عوض. (٢٠٠٣م). دراسات في أدب مصر الإسلامية. القاهرة: دار الثقافة.
- كلاس، جوزيف. (٢٠٠٨م). دمشق الفيحاء. إحتفالية دمشق عاصمة للثقافة العربية.
- محمد قميحة، مفيد. (١٩٨١م). الإتجاه الإنساني في الشعر العربي المعاصر. ط الأولي. بيروت: دار الآفاق الجديدة.

- النسفي، عبدالله بن أحمد بن محمود. (لاتا). تفسير النسفي؛ مدارك التنزيل وحقائق التأويل، مصر: مطبعة عيسي البابي الحلبي.